

قبس من نور الصحابة والتابعين

د. محمود جيلاني



الإمام مالك إمام دار الهجرة

هذه الكتيبات

هذه المحاولة في تلخيص تاريخ الشخصيات المميزة عبر تاريخنا الإسلامي أخذت منى سنين طويلة حتى أصل إلى هذه النتيجة.

ومن وجهة نظرى تتميز هذه الكتيبات بما يلى:

- 1- جميع الأحاديث النبوية الواردة فى الكتيبات تم تخريجها للتأكد من صحتها. مع تجنب ذكر أي رواية غير موثقة.
- 2- التركيز فقط على الجوانب الإيمانية والخلقية في الشخصية.
- 3- التعليقات فى الحدود الدنيا، منعا للتطويل لكنى أضفت كلمة أخيرة في نهاية معظم الشخصيات للحديث عن أبرز سمة.
- 4- اللغة السهلة في الكتابة لتتناسب عموم الناس.
- 5- الحجم الصغير بحيث لا يستغرق قراءته أكثر من 20 دقيقة.

في النهاية **أؤكد على أنى لست عالم دين، ولكنى مسلم عادى يحاول خدمة دينه** بعرض هذه النماذج من تاريخنا بالصورة اللائقة دون تزويق أو تزوير، بهدف الاقتداء المستتير بهذه الشخصيات.

جميع الكتيبات تجدها في موقعى www.drgilany.com

هذه الكتيبات وقف لله تعالى على روح والدتى رحمها الله.

المحتويات

- 4.....مقدمة
- 5.....أبناء الإمام مالك:
- 6.....أم الإمام مالك
- 7.....أساتذة مالك
- 11.....حلقة الإمام مالك
- 14.....تلاميذ حلقة الإمام مالك
- 17.....موطأ الإمام مالك
- 19.....الإمام مالك وزمن الفتن
- 21.....محنة الإمام مالك
- 23.....الخروج على الدولة عند الإمام مالك:
- 25.....مالك مع الرشيد
- 27.....مالك وقيمة الفتوى
- 28.....أصول مذهب مالك
- 30.....وفاة الإمام مالك

هو شيخ الإسلام، وصاحب الموطأ، إمام دار الهجرة، مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي. ولد عام ٩٣ هـ لأب فقير يعول نفسه وأهله من صناعة النبال. وجدته هو مالك بن أبي عامر الأصبحي (أصله من اليمن)، كان من كبار التابعين وعلمائهم، كما روى جده أحاديث عن عدد من كبار الصحابة.

وجدته أيضاً كان أحد الأربعة الذين حملوا عثمان بن عفان ليلاً إلى قبره وغسلوه ودفنوه، وكان ممن يكتب المصاحف حين جمع عثمان المصاحف، كما كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يستشيريه، وقد توفي جده سنة 94هـ.

والإمام مالك بن أنس بن مالك لا علاقة له بالصحابي الجليل أنس بن مالك وإنما فقط تشابه في الأسماء، وقد ولد الإمام مالك في نفس العام الذي مات فيه الصحابي الجليل أنس بن مالك. وعاش مالك حتى قارب التسعين.

وعاصر بضعة عشر خليفة، بداية من عمر بن عبد العزيز في دولة بني أمية وحتى هارون الرشيد في دولة بني العباس ومات سنة ١٧٩هـ.



أبناء الإمام مالك

كان لمالك بنت تسمى فاطمة وتكنى أم البنين، وهي الوحيدة من أولاده التي كانت سر أبيها، حيث ورثت حب العلم عن أبيها، فكانت تقف أحيانا خلف الباب فتسمع، فإذا أخطأ الذي يقرأ نقرت الباب نقرا خفيفا ليفطن مالك لخطأ القارئ فيصوبه.

أما أبنائه الذكور فلم يكونوا مثله في طلب العلم، فكان يقول: "إن مما يهون عليّ أن هذا الشأن (العلم) لا يُورث"، يقصد أنه منة من الله، حتى أن ابنه ربما دخل عليه وقد أرخى سراويله فيجعله مالك درسا لأصحابه ثم يقول:

”إنما الأدب أدب الله“

يقصد أن ليس بالضرورة لأنني مالك بن أنس أن يكون ابني مثلي، لكن التوفيق من الله.

وكان للإمام مالك ثلاثة من الذكور هم محمد ويحيى وحمادة (حماد)، وكان له زوجة واحدة، ورفض أن يصنع صنيع رجال عصره من الاستكثار من الزوجات أو أمهات الولد، فلم يتزوج غيرها.



أم الإمام مالك

أمه العالیه بنتُ شُرَيْك بن عبد الرحمن بن شريك الأزدية، وأزد من أشهر قبائل العرب القحطانية، فهي وزوجها أنس من عرب اليمن. فأصول الإمام مالك يمنية أما وأبا وجدا، لكنه ولد وعاش بالمدينة.

كان الإمام مالك يقول: نشأت وأنا غلام حدث، أتبع المغنين، وأخذ عنهم، فقالت لي أمي: يا بني، إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه؛ فدع الغناء، وأطلب الفقه؛ فإنه لا يضُرُّ معه قبح الوجه، فتركت المغنين، واتبعت الفقهاء، فبلغ الله بي عز وجل ما ترى.

ولم تكن بالإمام مالك دمامة، لكنه نكاه أمه التي أرادت صرفه للعلم. ولقد بدا أن كلماتها قد فعلت فعلها، وآتت أكلها؛ قال مالك: قلت لأمي: أذهب فأكتب العلم فقالت: تعال، فالبس ثياب العلم. فألبستني ثياباً مشمراً (فخيمة)، ووضعت العمامة على رأسي، ثم قالت: اذهب، فاكتب الآن. ولا يقف فعلها عند هذا؛ بل نجدها واعية، وفاهمة، ومدركة لأقدار العلماء الذين تدفع بابنها إليهم؛ يقول الإمام مالك، رحمه الله: كانت أمي تُعممني، وتقول لي:

اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أده قبل علمه.

تقصد ربيعة الرأي أحد شيوخ مالك.

الحق أن مالكا كان تلميذا نجيبا في مدرسة علماء المدينة، وتتلذذ على يد العديد منهم. وأولهم ربعة الرأي:

في حلقة ربعة الرأي:

بدأ مالك تعلم العلم في حلقة ربعة بن أبي عبد الرحمن (ت: 136هـ/754م)، وسمى بربيعة الرأي لاجتهاده في الرأي والقياس، وكان أعلم أهل المدينة وقتها بعد وفاة فقهاء المدينة السبعة.

وربيعة هو صاحب معضلات أهل المدينة في الفتيا، ولم يكن بالمدينة أسخي منه فقد أنفق على تلاميذه 40000 درهما. وكان ربعة إذا رأى مالك قادمًا يقول: **جاء العاقل**. وكان الإمام مالك لا يكف عن إطراء أستاذه، فكان يقول: **ذهبت حلوة الفقه منذ مات ربعة**."

ملحوظة:

الفقهاء السبعة كانوا في عصرٍ واحدٍ في أوائل المئة الأولى، وعندهم انتشر العلم والفتيا في الدنيا، وقد كان في عصرهم جماعة من العلماء والتابعين، لكنَّ الفتوى لم تكن إلاَّ لهؤلاء السبعة، وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير بن العوام، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسليمان بن يسار، و أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

في صحبة نافع مولى ابن عمر:

وتتلمذ الإمام مالك أيضاً على يد نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان نافع قد خدم عبد الله بن عمر ٣٠ سنة، ومات سنة ١١٧ هـ، وقد أرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم المصريين السنن.

وكان الإمام مالك يقود نافعاً لما كف بصره ليستفيد من مصاحبته. قال الإمام مالك:

**• كنت آتي نافعاً نصف النهار، وما تظلني الشجرة من الشمس
أتحنّ خروجه،**

فإذا خرج أدعه ساعة، كأني لم أره، ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه، حتى إذا دخل أقول له: «كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟»، فيجيبني، ثم أتركه فترة، وكان نافع فيه حدة فكان لا يتقل عليه. ولهذا روي مالك عنه أكثر من 80 حديثاً في الموطأ وهي المجموعة المعروفة بالسلسلة الذهبية،

وهي أصح الأحاديث على الإطلاق،

وهي التي يرويها مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ، وسميت بذلك لأنها أقصر وأقوى سند. وقال عنها الإمام البخاري: أصح الأسانيد كلها مالك عن نافع عن ابن عمر. ولولا

أن مالك كان يورد الأحاديث المرسلة في الموطأ لصار الموطأ كله أصح وأعلى سندا حتى من البخارى.

ملحوظة: الحديث المرسل هو الذى يرويه التابعى مباشرة عن رسول الله، بمعنى أن اسم الصحابي الذى يفترض أنه هو الذى سمع من النبي مباشرة لا يظهر في السند ولا يذكره التابعى، وحيث أن بعض هؤلاء كانوا من كبار التابعين وهم ثقة، والشخص الذى لم يرد ذكره في سلسلة السند صحابي فهو أيضا ثقة أيا كان اسمه، لذا فإن مالك كان يقبل هذه النوعية من الأحاديث، على خلاف بعض العلماء الذين يتوقفون في قبول وحجية الحديث المرسل.

مالك تلميذ الزهري (ت 129 هـ)

وتتلمذ مالك أيضا على يد ابن شهاب الزهري، فروى عنه في الموطأ ١٣٢ حديثا، وكان الزهري أعظم راوية للحديث عن رسول الله ﷺ حتى أن عمر بن عبد العزيز طلب منه أن يدون السنن، وكان حافظا من الدرجة الأولى، حفظ القرآن في ٨٠ ليلة، وكان الإمام مالك يشبهه في قوة الحفظ، حتى إنه ليسمع نيفاً وأربعين حديثاً مرة واحدة، فيجيء في اليوم التالي ويُلقي على ابن شهاب الزهري، أربعين حديثاً، مما يدل على قوة حفظه ووعيه، حتى قال له الزهري:

• أنت من أوعية العلم، وإنك لنعم المستودع للعلم

وكان مالك يقول: كنا نزدحم على سلم باب الزهري.

ومن كبار أساتذة مالك أيضا محمد بن المنكدر، الذي توفي سنة ١٣٠هـ، وكان زعيما للفقهاء علما ونبلا، وكان سيدا للقراء، عابدا زاهدا، يقول مالك:

” كنت إذا وجدت من نفسي قسوة آتي بن المنكدر فانظر إليه نظرة فأبغض نفسي أياما

وصارت لمالك حلقة خاصة به وعمره 17 عاما، وما جلس حتى شهد له سبعون عالما من علماء المدينة أنه أهل لذلك.

وصار من زينة الدنيا أن يقول الرجل: ”حدثنا مالك”

كما قال بشر الحافي الزاهد المعروف.



كانت حلقة الإمام مالك حلقة مهيبة فريدة في شكلها وطريقة إدارتها، فكان إذا جلس مالك في المسجد يجلس بين بيت رسول الله (قبره) والمنبر، وهي المنطقة التي قال عنها رسول الله ﷺ: " مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ " رواه الشيخان

وحلقته لا يسمح فيها باللغط والمرء، ولا رفع الصوت، والتلاميذ حافون به كأن على رؤوسهم الطير. فإن عقد الحلقة بداره تخرج الجارية تقول للناس؛ يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أم الفتاوى؟ فإن قالوا الفتاوى خرج إليهم فأفتاهم، وإن قالوا الحديث دخل مغتسله أولاً، فاغتسل، وتطيب، وسرح لحيته، ولبس أحسن ثيابه، وتعمم، وصلى ركعتين ثم يخرج إليهم وعليه الخشوع..

وكل ذلك تعظيماً لحديث رسول الله ﷺ

والدخول على مالك كالدخول على السلطان، له إذن، وكان لمالك حُجَّاب يطردون من يأمر بطردهم، ويتركون من يأذن له، والتلاميذ يضغط بعضهم بعضاً على الباب، فينادي مناديه: ليدخل أهل الحجاز، فما يدخل إلا هم، ثم ينادي ليدخل أهل الشام، ثم العراق، وهكذا.

ومن قواعد حلقة مالك أنه إذا جلس للحديث لا يحدث الواقفين ويعتبر ذلك نوعا مع سوء الأدب مع حديث رسول الله ﷺ.

سأله قاض عن حديث وهو واقف، فأمر الإمام مالك الحُجَّاب أن يأخذوه إلى السجن، فقبل له إنه قاض، قال:

القاضي أحق من أدب

وسأله آخر واقفا أيضا، فأمر به فضرب ٢٠ سوطا، ثم أشفق على الرجل فحدثه عشرين حديثا عوضا عن السياط، يقول الرجل:

وددت لو زادنى سياطا ويزيدنى حديثا

وكان الإمام مالك قد بلغ من المكانة أن صار كالوالي وليس واليا، ولكن الولاة يهابونه، فإذا علم الوالي أن مالكا أمر بسجن هذا أو جلد هذا ينفذ أمره فورا، دون حتى أن يراجعه.

ومالك لا يسمح في حلقة للتلميذ أو للسائل أن يوجهه إلى موضوع معين... دخل عبد الله بن المبارك وأصحابه على الإمام مالك فقالوا: حدثنا ولا تحدثنا إلا بحديث الزهري، فقام عنهم ولم يحدثهم لا بحديث الزهري ولا بغيره، وأمر الحراس أن يطردوهم خارج الدار !!

فلما رجعوا إليه معتذرين تاركين له حرية الاختيار حدثهم بحديث الزهري!! وفيما بعد أصبح عبد الله بن المبارك من أقرب الناس إلى

قلب الإمام مالك، بل كان الوحيد الذي يتزحزح له الإمام مالك في مجلسه ويقعده بجواره.

وعبد الله بن المبارك هو زعيم المحدثين بالعراق، وتلميذ سابق لأبي حنيفة، وعالم مجاهد كانوا يقولون عنه؛ ليس للصحابة فضل علي ابن مبارك إلا بصحبتهم لرسول الله ﷺ وغزوهم معه (راجع الكتيب الخاص به في هذه السلسلة).

وما فعله مالك مع عبد الله بن المبارك إمام العراق، فعل أكثر منه مع إمام الشام بقرية بن الوليد الذي دخل على الإمام مالك فسأله عن ست مسائل فأجاب، فأراد أن يسأله عن السابعة فقال له مالك: أكثرت، فألح عليه فنأدى مالك الحجاب فأخذه من ثيابه إلى خارج الدار!! فلا بد من احترام قواعد الحلقة وشكلها وهيئتها ولا أحد يجرؤ على تغيير هذه القواعد

حتى أنه لما قدم الأمين والمأمون ابني الرشيد ليتعلما على يد مالك، أصر مالك أن يحضرا إليه في مجلسه ولا يحضر هو إليهما. لما طلب منه مؤدبهما أن يقرأ لهما الموطأ فرفض، وقال: سمعت هذا العلم من رجال في روضة رسول الله وعتدهم ثم قال:

كل هؤلاء يقرأ عليهم ولا يقرأون.

فرفض مالك قانونه حتى على أبناء الخلفاء.

تلاميذ حلقة الإمام مالك

جلس في حلقة الإمام مالك تقريبا كل أئمة العصر وعظماؤه، وجلس فيها من كل الأجناس على مدار ٧٠ سنة وتعلم فيها خمسة من الخلفاء هم المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون، هذا فضلا عن العديد من الولاة الكبار والأمراء بالإضافة إلى العديد من أئمة الإسلام الذين أخذوا عن مالك أو تحاوروا معه، من أمثال، أبي حنيفة، والأوزاعي، وحماد بن زيد ومحمد بن الحسن الشيباني، وأبي يوسف تلميذ أبي حنيفة، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والليث بن سعد، والشافعي، وغيرهم من أعلام الإسلام.

أبو حنيفة في حلقة مالك

جلس في حلقة الإمام مالك الإمام أبو حنيفة حتى قالوا:

كان أبو حنيفة يجلس بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه،

ولكن المؤرخين يقولون إن ذلك من أدب أبي حنيفة لأنه كان أسن من مالك بـ ١٣ سنة، وأدب أبي حنيفة كان بعض وسائله للظفر بمجادليه ومنهم الإمام مالك الذي قال للإمام الليث عن أبي حنيفة وهو يمسخ العرق عن جبينه: عرقت مع أبي حنيفة... إنه فقيه يا مصري.

وكان الإمام مالك يقول عن أبي حنيفة: لو أراد أن يجادلك في أن هذا السارية من ذهب لكانت له الحجة.

كان الشافعي يقول:

ما هبت أحدا قط هبتي مالك بن أنس،

فعندما أردت الذهاب إليه لأتعلم منه حفظت الموطأ قبل أن أرحل إليه،
وختمت القرآن 16 مرة في الطريق بين مكة والمدينة، وحملت معي
توصية من والي مكة إلى والي المدينة ليقدمه الواليان لمالك !!

فلما وصل المدينة دفع التوصية إلى والي المدينة وذهبا معا إلى منزل
مالك، فطرق الوالي الباب، فخرجت له جارية سوداء، فقال لها: قولي
لمولاي إني بالباب، فدخلت وأبطأت، ثم خرجت تقول: إن مولاي يقول
لك:

**” إن كانت لك مسألة فارفعها في ورقة حتى يخرج لك الجواب،
وإن كان الجيء لشيء آخر فقد عرفت يوم المجلس ”**

فلما توسل له الوالي أن معه خطابا من والي مكة في أمر مهم، أذن
لهما فقرا مالك الخطاب ورماه قائلا:

” صار علم رسول الله يطالب بالوسائل،

أي بالواسطة” فتقدم الشافعي وقال: أصلحك الله، إني رجل من بني
المطلب وحالي كذا وكذا. فلما سمع مالك حديثه نظر إليه وكان لمالك
فراصة، فقال ما اسمك ؟ قال: محمد بن إدريس، قال:

يا محمد، اتق الله، واجتنب المعاصي، فسيكون لك شان،

ولزم الشافعي مالكا بعدها عشر سنين حتى ورث علمه كله. وكان الشافعي يقول :

إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

وكان الشافعي بقول عن الموطأ : ما في الأرض، بعد كتاب الله، أكثر صواباً من موطأ مالك بن أنس.



قيل إن مالكا كان يروي مائة ألف حديث، أودع الموطأ منها أول أمره 10000، وظل يخلصها عاما بعد عام، حتى مات وفيه ما يقرب من ١٠٠٠ حديث فقط، وسماه الموطأ لأنه وطأه للناس أي سهّله. وألّفه في أربعين سنة. وليس في الموطأ حديث غير حسن، وهو أول كتاب صُنّف في السنن، وعنه يقول الشافعي:

ما في الأرض كتاب في الفقه والعلم أكثر صوابا من كتاب

مالك

ولما حج أبو جعفر المنصور دعا الإمام مالك وقال له: إني عزمت أن أمر بكتابتك الذي وضعته - يعني الموطأ - فينسخ نسخا، ثم أبعث إلى كل مصر من الأمصار بنسخة، وأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يعدونه إلى غيره. فقال مالك: " يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، وأخذ كل قوم بما وصل إليهم وعملوا به، وإن ردهم عما اعتقدوه الآن أمر شديد، فدع الناس وما هم عليه، ودع أهل كل بلد وما اختاروه لأنفسهم ". وحاول أكثر من خليفة بعد ذلك أن يطلب نفس الطلب، وفي كل مرة يرفض مالك ذلك احتراما لاختلاف الآراء بين العلماء.

اتبع مالك في موطئه طريقة المؤلفين في عصره، فمزج الحديث بأقوال الصحابة والتابعين والآراء الفقهية، حتى بلغت آثار الصحابة 613

أثراً، وأقوال التابعين 285 قولاً. وكان يُقدّم في الباب الحديث المرفوع ثم يتبعه بالآثار وأحياناً يذكر عمل أهل المدينة، فكتابه كتاب فقه وحديث في وقت واحد، وليس كتاب جمع للروايات فقط، لذلك تجد بعض الأبواب تخلو من المرويات، وإنما يسوق فيها أقوال الفقهاء وعمل أهل المدينة واجتهاداته، ونجد أيضاً أنه اقتصر تقريباً على قضايا الفقه في كتابه، فلا تجد في الموطأ شيئاً في الزهد أو القصص والتفسير. وهذه صورة تلخص عناوين محتويات كتاب الموطأ للإمام مالك.

- | | |
|------------------------|----------------------------|
| • كتاب الجنائز | • كتاب وقوت الصلاة |
| • كتاب الزكاة | • كتاب الطهارة |
| • كتاب الصيام | • كتاب الصلاة |
| • كتاب الاعتكاف | • كتاب السهو |
| • كتاب الحج | • كتاب الجمعة |
| • كتاب الجهاد | • كتاب الصلاة في رمضان |
| • كتاب النذور والأيمان | • كتاب صلاة الليل |
| • كتاب الضحايا | • كتاب صلاة الجماعة |
| • كتاب النباح | • كتاب قصر الصلاة في السفر |
| • كتاب الصيد | • كتاب العيدين |
| • كتاب العقيقة | • كتاب صلاة الخوف |
| • كتاب الفرائض | • كتاب صلاة الكسوف |
| • كتاب النكاح | • كتاب الاستسقاء |
| • كتاب الطلاق | • كتاب القبلة |
| • كتاب اللباس | • كتاب الفرائض |
| • كتاب صفة النبي ﷺ | • كتاب المساقاة |
| • كتاب العين | • كتاب كراه الأرض |
| • كتاب الشعر | • كتاب الشفعة |
| • كتاب الرؤيا | • كتاب الأفضية |
| • كتاب السلام | • كتاب الوصية |
| • كتاب الاستئذان | • كتاب العتق والولاء |
| • كتاب البيعة | • كتاب المكاتب |
| • كتاب الكلام | • كتاب المدبر |
| • كتاب جهنم | • كتاب الحدود |
| • كتاب الصدقة | • كتاب الأثرية |
| • كتاب العلم | • كتاب العقول |

كانت المدينة دائما مصدر الخطر على خلفاء الدولتين الأموية ثم العباسية. ومنها خرج على الخلافة العديد من أبناء آل البيت من فرع الطالبين (الذين ينتهي نسبهم إلى علي بن أبي طالب) الذين كانوا يرون أنهم أولى بالخلافة من فرع العباسيين (الذين ينتهي نسبهم إلى عبد الله بن عباس)، والسبب في ذلك أن الدعوة العباسية في أصلها كانت دعوة لنقل الحكم من الأمويين إلى "الرضي من آل محمد" أي إلى من يرضاه المسلمون من آل محمد، دون تحديد لشخص معين ولا لفرع معين. وإن كان الظن الغالب لمن يسمع هذا المصطلح أن يذهب به فكره إلى أبناء الحسن والحسين. فلما انتصرت الدعوة.. انتزع الفرع المنتهي إلى عبد الله بن عباس الخلافة فسموا العباسيين، وتركوا فرع علي المسمى بالطالبين. من هنا بدأت الفتن واستمرت سنين طويلة وبين الحين والحين يخرج فارس جديد من الطالبين يبحث عن حقهم المسلوب في الخلافة.

فأين كان مالك من هذه الثورات والفتن؟، وكلها كانت في حياته؟

الحقيقة أن الإمام مالك بن نبي فقهه في هذه المسائل على الحياد وطاعة أولى الأمر، كما فعل عبد الله بن عمر حين اعتزل فريق علي ومعاوية عام الفتنة، ومع ذلك لم يسلم الإمام مالك من أذي الخلفاء، ففي أيام الدولة العباسية وهي الفترة التي كان فيها مالك متفردا بالمكانة العليا

على مستوى العالم الإسلامي كله قد وقعت الكثير من هذه الفتن، وأكثرها خرج من المدينة نفسها. فخرج محمد المعروف بالنفس الزكية على المنصور سنة 145 هـ بالمدينة، وخرج أخوه إبراهيم فاستولى على البصرة، غير أن جيوش المنصور سرعان ما تداركت الأمر فانهزم الشقيقان، وبدأ الانتقام من أهل المدينة الذين ساندوا محمدا في خروجه على المنصور.

الإمام مالك بن أنس

”

إذا رأيت الرجل يدافع عن الحق فيشتتم ويسب
ويغضب.. فاعلم أنه معلول النية لأن الحق لا يحتاج

إلى هذا

“

كان الإمام مالك يبتعد عن الثورات والتحريض عليها، وعن الفتن والخوض فيها، ومع ذلك فقد نزلت به محنة في عهد أبي جعفر المنصور، سنة 146هـ.

فقد ألبس المنصور المدينة لباس الجوع والفرع كعقاب جماعي لمساندتهم الخارجين عليه بزعامة محمد النفس الزكية، فأمر بغلق طريق البحر عليهم فلم يحمل إليهم شيء من تجارة أو طعام إلا من الصحراء. وهذه هي أشد الفترات ضنكا على الإمام مالك، حتى كانت ابنته تبكي من الجوع فيأمر بحجر الرحي فتدور حتى لا يسمع الجيران بكاءها.

وبلغ التضيق أيضا على الأفكار والدروس حتى أن الوالي بعث إلى مالك يأمره ألا يُحدِّث بحديث: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" ولا يُحدِّث بحديث: "ليس على مكره يمين" لأن الناس يقرنون هذه الأحاديث في أذهانهم بالخروج على بني العباس لأن بيعتهم كانت بالإكراه.

وكان مالك يذكر زمن هذه الفتنة فتوى فقهية عن رجل أكره على طلاق امرأته فكان يقول: ليس على مستكره طلاق، فربط الناس بين ذلك وبين المستكره على بيعة بني العباس، فخرج الناس مع محمد النفس الزكية، ولزم مالك بيته. ولما رفض الإمام مالك أن يتوقف عن مثل هذه

الأحاديث فضربه الوالي من ٣٠ إلى ١٠٠ سوط حتى خلع كتفه، وحمله على بعير للتشهير به في الأسواق، فكان يقول وهو فوق البعير:

” من عرفني فقد عرفتي، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس،

وأنا أقول... ليس على مكره يمين

فلما رأى ذلك الأمير أسقط في يده، وأمر أن يرجع مالك لداره. وكان المقصود من ضرب مالك إيقاع الرعب في القلوب، فالرعب لا يقع إلا بضرب الرؤوس في رأى هذا الوالي المتكبر الأرعن.

وبلغ الأمر الخليفة أبا جعفر المنصور فاستشاط غضبا على هذا الوالي الأحمق الذي يثير الأمة على الخلافة بما فعله في الإمام مالك. ف جاء أبو جعفر المنصور وقابل الإمام مالك بنفسه في موسم الحج، واعتذر له بكل أنواع الاعتذار، وحلف له أنه ما علم بما جرى، ولا رضي حين علم، بل وعزل هذا الوالي - وكان هذا الوالي ابن عم الخليفة - بل وأمر أبو جعفر أن يوضع هذا الوالي على حمار للتشهير به كما فعل بمالك، وحبس وأهين.. فعفى الإمام مالك عن هذا الوالي لقربته من رسول الله ﷺ فهو من بنى العباس، ورضى باعتذار الخليفة.

ومن بعدها تعلم الولاة الأدب مع الإمام مالك..

حتى كان الوالي لا يجرؤ على طلب الإمام ليحضر عنده بل يجئ بنفسه إليه وربما أذن له الإمام مالك وربما رده !!!.. وما زال مالك بعدها في علو ورفعة.. **وثمرة المحنة ترفع العبد عند الله وعند المؤمنين.**

الخروج على الدولة عند الإمام مالك

كان الإمام مالك لا يرى جواز الخروج على الإمام الجائر، على عكس مذهب الخوارج مثلا، ولا يرى جواز سل السيف في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. سأله يوما رجل من ولد عمر بن الخطاب عن البيعة لغير المنصور فقال مالك للسائل: أتدري ما الذي منع عمر بن عبد العزيز أن يولى رجلا صالحا بعده؟ قال: لا، قال مالك: كانت البيعة ليزيد بن عبد الملك، فخاف عمر إن بايع لغيره أن يقوم ويقا تل الناس وتكون فتنة.

وإن كان مالك في نفس الوقت يقف على الحياد الكامل فقد سأله سائل هل يجوز محاربة الخارجين على السلطان؟. فقال: إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم. فقال: فإن لم يكونوا مثله؟ فأجاب:

دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما.

نشير هنا أيضا إلى أن الإمام مالك على عكس كثير من العلماء كان يقبل هدايا الخلفاء، ولا يعتريه شك في حل أخذها، وإن كان يتعفف عن الأخذ ممن دونهم.

فقد كان مالك يعتبر هذه الأعطيات من الحاكم إنما هي من مال الدولة وليس من جيب الحاكم،

ومن ثم يرى أن من حقه أن يأخذ من هذا المال.

وكان الإمام مالك يرى أن علاقته بالولادة والخلفاء حماية للمدينة من ظلم الولاة وإهمال الخلفاء. قيل له: إنك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون، قال: رحمك الله وأين التكلم بالحق!! وكان يقول: **لولا أني آتيهم ما رأيت للنبي سنة معمول بها في هذه المدينة.**

ملحوظة: كتب المناقب والأخبار لم تورد مصادر دخل الإمام مالك موضحةً مبيّنةً، لكن جاءت أخباراً منثورةً تقول أن مالكاً كان يعمل بالتجارة، فقد قال تلميذه ابن القاسم: «إنه كان لمالك أربعمئة دينار يتجر بها، فمنها كان قوام عيشه».



مالك مع الرشيد

جلس الرشيد تلميذا في حلقة مالك هو وابناه الأمين والمأمون، وكان الرشيد قد أصدر أمرا - كما فعل أبوه المهدي وجده المنصور - إلى واليه بالمدينة ألا يقطع أمرا دون مالك، ولذا كان مالك كما ذكرنا يملك سلطات مثل الوالي، فإذا أمر بأمر ينفذ دون الرجوع للوالي الفعلى.

ومالك هو الذي نصح الرشيد بعدم إعادة بناء الكعبة، فقد أراد الرشيد أن يحقق أمنية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي وردت في حديث عائشة الذى رواه الإمام مسلم حيث قال: يا عائشة، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُ عَهْدِ بَشْرِكَ، لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِنَّةَ أُذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الْكَعْبَةَ.

فأراد الرشيد تنفيذ رغبة النبي، ورفض مالك ذلك، وكانت حجته في ذلك ألا يصير البيت ألعوبة في يد الخلفاء فتسقط هيئته، فقد قام عبد الله بن الزبير سابقا بتنفيذ هذه الرغبة حين كان مسيطرا على الحجاز، ثم جاء عبد الملك بن مروان فهدم ما فعله ابن الزبير، فخشى الإمام مالك من ضياع هيبة البيت.. فأطاعه الرشيد.

وحلف الرشيد يوما يمينا ثم أراد أن يرجع فيه ويكفر عن يمينه، فاستشار الإمام مالك، فأفتاه مالك أن عليه صيام ثلاثة أيام، وكان هذا عجيبا، فالذى يصوم ثلاثة أيام هو من لا يستطيع عتق رقبة أو لا يستطيع

إطعام عشرة مساكين، فسأله الرشيد: ولما؟ هل أنا لا أستطيع عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين؟ فكان جواب مالك مدويا.. قال:

يا أمير المؤمنين كل ما تحت يديك ليس لك، وعليك الصيام.

فكل ما تحت يد الحاكم من مال إنما هو حق الأمة وليس ماله ولا مال أبيه.

روي عن الإمام مالك أنه كان يقول:

لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب..

وانظروا إلى ذنوبكم كأنكم عبيد..

فارحموا أهل البلاء.. واحمدوا الله على العافية

وإياك أن تقول :

هذا من أهل النار.. وهذا من أهل الجنة..

لا تتكبر على أهل المعصية..

بل ادع الله لهم بالهداية والرشاد..

وكان من تقوى الإمام مالك وخشيته لله عز وجل أن هذه المكانة والصيت الذي طبق الآفاق لم تمنعه أن يقول: "لا أعلم"، حين لا يعلم. وقد يجيئه رجل من بلاد المغرب بعد ستة شهور من السفر فيسأل عن مسألة فيقول له مالك: لا أعلم، فيقول الرجل: من يعلمها؟ فيقول مالك: "من علمه الله"، ما سمعنا بهذه المسائل في بلادنا. فيقول الرجل: تركت خلفي من يقول ليس على وجه الأرض أعلم منك، فيقول مالك غير مبال: إذا رجعت فأخبرهم أنني لا أحسن. هكذا ببساطة!!

وكان يعقب كثيراً فتواه بقوله: ﴿إِنْ تَطُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيِّقِينَ﴾. وكان يقول:

إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.

كما كان الإمام مالك ينهى عن الجدل في الدين ويقول: المرء والجدال في الدين يذهب بنور العلم من قلب العبد.



أصول مذهب مالك

لم يكن للإمام مالك أصولٌ فقهية بالمعنى المعروف، ولم يأخذ عنه أحد من أصحابه منهاجاً أو أصلاً مما عليه فقهه، ولكن استطاع أصحابه ثم أصحابهم من بعدهم أن يستقصوا فقهه، وينتزعوا منه الأصول التي بُنى عليها. فأما أصول المذهب المالكي فهي: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، وعمل أهل المدينة، والقياس، والمصالح المرسلة، والاستحسان، وسد الذرائع، والاستصحاب.

علما بأن معظم هذه المصطلحات لم يستعملها الإمام مالك نفسه، لكن روح هذه المصطلحات والأصول كانت واضحة في فتاواه، ثم أصلها تلاميذه من بعده.

وقد انتشر المذهب المالكي انتشاراً واسعاً في الحجاز عدا مكة التي مالت إلى المذهب الشافعي لطول بقاء الشافعي بمكة، وانتشر المذهب المالكي أيضاً في مصر و المغرب ثم الأندلس، وما زال المغرب العربي حتى اليوم ليس فيه إلا المذهب المالكي باستثناء مصر التي ينتشر فيها المذهب الشافعي أكثر من المذهب المالكي بحكم أن الشافعي عاش 5 سنين في مصر ومات ودفن فيها.

وليس هناك حرج أن يتمذهب الإنسان بمذهب الإمام الشافعي مثلاً أو مذهب الإمام مالك أو غيره:

**فلكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما
من أئمة الدين، لكن يحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في
تعرف أدلة إمامه، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح
عنده صلاح من أرشده وكفايته،**

وبشرط ألا يجعل الالتزام بمذهب معين واجبا، إذ لا واجب إلا ما
أوجبه الله ورسوله، بل يجب عليه الانتقال من مذهبه في قضية معينة
إلى مذهب آخر إذا وجد الحق في غير مذهبه.



المسجد النبوي بالمدينة المنورة سنة 1910 (مكتبة الكونغرس)

وفاة الإمام مالك

في ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ، مرض مالك مرضاً دام ٢٢ يوماً، وفي العشية التي مات فيها دخل عليه تلاميذه فقالوا: كيف تجدك؟ قال:

ما أدري ما أقول لكم، ألا إنكم ستعاينون غداً من عفو الله ما لم يكن لكم في الحساب.

وكان آخر كلامه قول الله تعالى:

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
الْمُؤْمِنُونَ﴾

